مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn :2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 7 / العـدد: 2 (2019)، ص 90- 108

مراجعة ابستمولوجية للنظرية التحليلية الكلاسيكية في علم النفس

A review Epistemological of Classical psycho-analysis theory in psychology

لرينونة محمد يزيد[1]، براهيمي شبلي[2]

[1] جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، ymohamed.lary@gmail.com

[2] جامعة الجزائر 2 (الجزائر)، chebli.brahimi@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2019/05/10 تاريخ القبول: 2019/05/27 تاريخ النشر:2019/06/01

ملخص:

بهدف فحص النظرية التحليلية الكلاسيكية في علم النفس، في بنائها النظري والمنهجي، تم تقديم أهم الأدلة والبراهين العلمية والمنهجية على جوانب قصورها في نظرتها للإنسان والشخصية، وعلى ضعف اتساقها وضبطها المنهجي، وقلة أدلتها ومبرراتها في الخدمة التشخيصية والعلاجية، بما يوجه أهل الاختصاص للنظر بعمق في قناعاتهم العلمية والعملية فيما يخدم مصلحة العملاء في المساعدة النفسية.

كلمات مفتاحية: ابستمولوجيا، النظرية التحليلية.،علم النفس.

Abstract:

In order to examine the Classical psycho-analysis theory, for theoretical and methodological construction, been giving the most important evidence of the limited perception of human and personality, and the weakness of their consistency and methodological control, and lack of credibility in the systematic diagnostic and therapeutic service, their draw the Specialists to consider of the scientific and practical convictions with serves the interest of the clients in the psychological assistance.

Keywords : Epistemology ; psycho-analysis theory ;Psychology.

المؤلف المرسل: براهيمي شبلي.

1. مقدمة:

تعتبر نظرية التحليل النفسي في رأي بعض الباحثين في علم النفس أنها النظرية الأولى التي ظهرت في مجال الشخصية والعلاج النفسي، وواضع هذه النظرية هو سيقموند فرويد Sigmund Freud وهو نمساوي الأصل، يهودي الديانة (الشناوي، ب ت، ص377)، وقد عرفت نظريته اتساعا وتأثيرا كبيرا على عديد من المفاهيم الفلسفية والنفسية والاجتماعية للطبيعة البشرية، وكانت المساهمة الرئيسية تتجلى في الاعتراف بأن الحاجيات اللاواعية والصراعات تتحكم بمعظم سلوكيات الأفراد، كما تم التأكيد على أهمية التجارب المرافقة للطفولة المبكرة في نمو وتطور الشخصية، ولكن تلقت هذه النظرية نقدا قاسيا من طرف العديد من المناهضين لها، مع العلم أنه لا توجد دراسات كثيرة في السنوات العشر الأخيرة تحاول اختبار فروض التحليل النفسي كما ذكر جمعة (2001) وربما يرجع ذلك إلى أحد أمرين:

- التعصب ضد النظرية واعتبارها منتهية الصلاحية.
- أو التمسك التام بها واعتبارها فوق النقد، وفوق محاولة الاختبار العلمي (جمعة سيد يوسف، 2001،ص 79)

وفي هذا السياق يمكننا إدراج ما جاء في التفكير الإبستيمولوجي لكارل بوبر Carl Popper وهو يتحدث عن العلوم بقوله: "إذا كنا نبحث عن تأكيدات، فإنه من السهل فعل ذلك، ففي أغلب النظريات هناك تأكيدات، فإن كانت نظرية لا تقبل التكذيب بأي حدث يمكن تصوره، فهي خالية من أي طابع علمي" (Popper,1985,pp 64-65).

وإمكانية التكذيب بالنسبة لبوبر معيار العلمية، ولا بد للنظرية أن تقدم إمكانية للتجارب الأساسية التي تسمح بتكذيبها، حتى تكون موصوفة بالعلمية، حيث يثق بوبر كثيرا في التجريب، رغم أن العديد من التجارب ليست لها مصداقية، حتى وإن تعلق الأمر بالفيزياء، فالعديد من التجارب المعاكسة لم تثبت نفي نظرية نيوتن، والعكس أصح. (Juignet Patrick,2015).

وبما أن العلوم الإنسانية والاجتماعية قائمة على الشك والجدل، كان من الضروري النظر إلى النظرية التحليلية وفحصها وتمحيصها وبيان وجوه القوة والضعف فيها، وفي بنائها المنهجي والموضوعي حتى تستقيم نظرة العلم للإنسان، مع الإشارة إلى أن مصطلح التحليل النفسي يثير خلطا كثيرا فهو يشير أحيانا إلى ما أبداه فرويد من آراء حول الطبيعة البشرية بصفة عامة ويشير أحيانا أخرى إلى نظريته في الشخصية أو إلى طريقته في العلاج وقد يشير إلى جميع النظريات التي تتفق مع وجهة نظر فرويد وإن كانت تختلف معها في بعض النقاط مثل نظرية ألفرد أدلر وأوتورانك وهاري سوليفان وغيرهم.

فما مدى مصداقية نظرية التحليلي النفسي الفرويدية؟

وما هي جوانب الضعف المنهجية والابريقية التي قامت عليها؟

2. نقد نظرية التحليل النفسي:

يرى هول ولندزي أنه لم تتعرض أي نظرية للنقد الثاقب والبالغ المرارة كما تعرضت نظرية فرويد للتحليل النفسي فمن كل جانب وفي كل مجال يمكن تصوره تعرض فرويد وتعرضت نظريته للهجوم والنقد والسخرية والتجريح (الشناوي، ب ت، ص394)

لذلك يمكن التطرق إلى مراجعة نظرية موجزة للتحليل النفسي وفق خطوات مهمة في التأسيس والتأصيل لأي نظرية علمية حتى تتضح صورة ومدى مصداقية البناء وذلك من خلال الاعتبارات التالية:

1.2. النظرة إلى الإنسان:

انطلقت نظرية التحليل الكلاسيكية من الاعتقاد بالنظرة الجبرية للسلوك البشري، والنظرة التشاؤمية للإنسان وأنه شرير بطبعه، وأنه تحركه غريزة العدوانية، وهو مناف لإمكانية التغير والتحسن بالنسبة للمرضى (جمعة سيد يوسف، 2001 ،ص81)

ودليل ذلك أن فرويد قسم الجهاز النفسي إلى أنا وهو وأنا أعلى، وأعطى وظيفة لكل قسم وخصص الأنا الأعلى مكانا للقيم والمثل والتقاليد المجتمعية التي تعمل على حراسة الغرائز من أن تخرج بصورة لا تقرها تلك القيم والمثل والتقاليد، وهذا المحتوى مفروض على الفرد من قبل مجتمعه من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي يمر بها خلال مروره بمراحل النمو المختلفة، وهكذا يكون مكان الأخلاق في الأنا الأعلى، وبهذا المفهوم الفرويدي تصبح الأخلاق مفروضة على الفرد لا خيار له فيها وليست جزءا من بنائه النفسي، وهذا ادعاء غير صحيح حيث وجدت الأخلاق مع الإنسان منذ وجد، ولولا كونه معدا للتحلي بالحسن منها والنفرة من السيء منها، لما كانت جزء لا يتجزأ من شخصيته التي عرف بها منذ القدم (عن الصنيع،2002،ص ص 15-16)

والرد على ذلك أن التأسيس الأول المتفق عليه للسلوك البشري أنه مرن وثابت نسبيا، وهذا يطرح إمكانية التغير وفاعلية الخدمة النفسية، وهو وارد في مملكة الحيوان (فترى الأسد يروض ليصير مطيعا) فما بالك بحياة الإنسان، والنظرة الجبرية لها مقاصدها العقائدية الفاسدة بتسيير الإنسان، وأن حرية اختياره منعدمة، وهو ما لم تتقبله النصوص الإسلامية في مجتمعنا المسلم إجمالا وتفصيلا.

وامتدادا لما سبق فمازال التحليل يرى أن الإنسان كائن متطور عن الحيوان (النظرة الدروينية) ، وهذه المسلمة شائعة بين النظريات الغربية، ويعود

في أصلها إلى ما طرحه تشارلز داروين في كتابه أصل الأنواع الصادر بتايخ 1859، و يذكر فيه أن الحياة الأولى ظهرت بصورة خلية واحدة، ثم تطورت بشكل متدرج للكائنات (عن الصنيع،1999،ص 35)، و يؤيد فرويد هذا المبدأ أن الكائنات الحية ظهرت بعد الكائنات غير الحية، وأنها نشأت منها، وكثير من المحللين الكلاسيكيين يؤيدون هذا المبدأ، حتى أن ايريك فروم يقول: "إن الإنسان في أصله حيوان يحيى في قطيع" (عن الصنيع،1999،ص 36)، والحق أنها نظرية تهبط بالإنسان إلى مرتبة الحيوان وتجرده من أكبر نعم الله عليه وهي العقل، وتزيح جانبا من القيم والمعايير والأخلاقيات كإطار للتعامل بين البشر (محمد السيد، 1998، ص105) ، وقد قدم العلم الحديث في بحوثه البيولوجية و التاريخية من مبررات وأدلة علمية على بطلان هذه النظرة التشاؤمية والدونية للإنسان، وذلك ما دفع فرويد لإنكار الدين، ورأى أن التمسك بتعاليم الدين سبب للإصابة بالمشكلات النفسية، ومن يقرأ كتاب فرويد "قلق في الحضارة" يرى هذا الاتجاه بارزا في ثناياه، وكتابه "مستقبل وهم" مخصص لنقض الدين ووظائفه في حياة الناس، لأن المقصود بالوهم في عنوان الكتاب هو الدين، حيث يشك في صدق المعتقدات الدينية وأنها مجرد أوهام (عن الصنيع،1999،ص 37)، و ذلك أن رأي فرويد عن الدين قائم على واقع المجتمعات الغربية التي حرفت فيها الأديان، وأدخلت عليها كثير من الانحرافات التي أبعدت الدين عن أصوله الصحيحة وظهرت فيها الكثير من التناقضات، مما أفقد الناس الثقة فيما يورده رجال الدين (عن الصنيع،2002،ص 9)

وخالفه في ذلك العديد من العلماء حتى من مقربيه فزعيم مدرسة العلاج بالمعنى فيكتور فرانكل يرى أن المريض حينما يكون واقفا على أرض صلبة من الاعتقاد الديني، فلا يمكن أن يكون هناك اعتراض بشأن الاستفادة من التأثير

العلاجي لمعتقداته الدينية مما ينبع من المصادر الروحية ويعتمد عليها (عن الصنيع،2002،ص 97)

ضف إلى ذلك أن رفض فرويد للدين يتعارض مع إيمانه بوجود غريزة العدوان، وكان من الأجدى له أن يدعو إلى الالتزام بالدين والفضائل من قبيل حب الآخرين والعفو والتضحية والإحسان والرحمة، ورفض العنف والزهد والتقشف، كما يحارب القسوة والكبرياء والأنانية و تقديس القوة، وهو بذلك يهدم أكثر مما يبني كما تدعو مبادئ الدين من كل إنسان أن يتجاوز لذاته، و أن يكون خليفة الله في أرضه حرا لا تحكمه الغريزة وتسيطر عليه، وأن ينتصر على ملذاته (محمد السيد، 1998، ص105)

ومن قبيل ذلك ما عانته النظرية التحليلية الكلاسيكية من مشكلة التحيز الواضح نحو الجنس في نظرتها للفروق الجنسية، حيث يستعمل فرويد شخصية الذكر كنموذج أولي، ووصفه بصورة مثالية وفي نظره تبدو النساء أدني من الرجال، وأن أجزاء من شخصياتهن تختلف عن الرجال بسبب دفاعاتهن، والتعويض المفرط تجاه شعورهن بالنقص، لكن العديد من مفاهيم فرويد عن النساء لم يتم إثباتها كافتراض أن الرجال نموذج للشخصية الإنسانية وعلى المرأة المثابرة والجهد لتتشابه مع الرجل وتتساوى معه، وأن الأنا العلى عند المرأة ضعيفة (الدسوقي،2002، ص133) وتنبع هذه النظرة من تأملات وتحليقات شخصية، عبارة عن نظرة ذاتية بكل ما تحمل كلمة "ذاتية" من معنى، أي أنها تُعبّر عن حقيقة الشخص لا عن الحقيقة بإطلاق، لأن هذه الأخيرة من حق فاطر النفس حصرا، القائل في محكم التنزيل "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" (الملك 14). (الوزاني،2008)، وهناك اتجاه حديث في التحليل النفسي يقول بالمساواة بين الجنسين (ستيل،1985) وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن المرأة تتفوق عما كان يعتقد سواء جسديا أو روحيا (الدسوقي،2002، ص 133)،

وحتى أن برسيفال بيلي (1999) يذكر أن عداءه للتحليل النفسي (في قضية الجنسية) يذهب بالأحرى إلى التأثير المضخم والمحرف الذي أحرزته حركة التحليل النفسي في الولايات المتحدة كما تنبأ به فرويد وخشي منه، وبهذا فقد تسببت هذه الحركة في رأيه أذى فاحشا للطب النفسي وللحضارة عموما (برسيفال بيلي، 1999، ص33)

2.2. بناء الشخصية:

وقع جدال كبير حول إمكانية اختبار النظرية التحليلية في الشخصية لأن الفرويدية هي نظرية افتراضية تطرح أفكارا على مستوى مسلمات منسقة بمنظومة متماسكة الحلقات من حيث المنطق فان الذي يعوزها أن تأخذ بأسباب التجربة العلمية لتؤكد على صحة افتراضاتها وهذا ما لا تفعله ولا يمكن أن تفعله (الحجار، ب ت، ص3115)، ومن ذلك أن فرويد قدم نتائجه وأعطاها تعميمات شاملة، من خلال تحليله لامرأة يهودية من الطبقة الوسطى من فيينا، وتم الاعتماد وبشكل كامل على ملاحظاته المتعلقة بأفراد مضطربين عاطفيا، وهذا قد لا يكون وصفا ملائما أو تعبيرا دقيقا يطابق الشخصية العادية السليمة، ولقد أقام فرويد تحليلاته وملاحظاته وصاغ نظريته خلال فترة العصر الفيكتوري، عندما كانت المفاهيم الجنسية محظورة جدا، ولذلك كان من الواضح أن معظم مرضاه يعانون من صراع يتعلق برغباتهم الجنسية، وأما اليوم فعلى الرغم من مشاعر الإثم المرتبطة بالجنس أصبحت أقل انتشارا وحدوث المرض الذهني بقي نفسه.

وعن إثباتات فرويد لمراحل نمو الشخصية، والتي وصفها بمفاهيم غامضة ومن الصعب تعريفها، فهو لم يعط دلالات واضحة مثل أن يبين ما هو السلوك الذي يشير إلى أن الطفل متثبت في المرحلة الفمية أو الشرجية في التطور النفسي الجنسي، وهي تفترض أن هناك سلوكيات مختلفة جدا يمكن أن تكون علامات أو

إشارات لنفس الدافع أو الصراع، فمثلا إن الأم التي تشعر أنها ممتعضة من ابنها ستعاقبه أو قد تنكر دوافعها العدائية اتجاهه بأن تتصرف بأسلوب فيه كثير من الاهتمام والحرص، فعندما نقول إن مثل هذه التصرفات المتناقضة يمكن أن تنتج من نفس الدافع الضمني، لا يمكننا أن نجزم بوجود أو غياب مثل هذا الدافع، والذي أيدته التجارب المتنوعة هو أن السلوك منذ الولادة يكون مدفوعا بشبكة من العوامل فالرضاعة مثلا ليست سلوكا مدفوعا بدافع الجنس فقط كما قال فرويد (محمد عز الدين،1998، ص 216)

وبالنسبة لفرويد فإن كل شيء له صلة بالجنس، ليس فقط جذب شخص للآخر من الجنس الآخر، وكل ما هو غريزي، وجدان وعاطفة، بل هو كل ما يسميه الفلاسفة قوة الحياة، وإرادة العيش، وإرادة القوة، ويذكر فرويد أن الليبيدو مصطلح علمي يقصد به القوة التي تظهر بها الغريزة، والتي تقترب من مفهوم الجوع بالنسبة للتغذية، وبالأصل الألماني للمصطلح (Lust) فذلك يعني في ذات الوقت الإحساس بالحاجة والإشباع.

وبهذا المنظور فإن كل عواطفنا وودنا ما هو سوى نتاج الليبيدو، والتي أصبحت على حد رأي يونغ Yung قوة الحياة، ويكون العنصر الأساسي فيها هو الجذب الجنسي، ويضيف بلولر Bluler بأن المفهوم الفرويدي لليبيدو تفوق بكثير على الجانب التناسلي، فهي تنطبق في بعض الحالات على كل طموحاتنا الإيجابية، ويذكر بوتهام Boteham أنه لفهم هذه النظرية يجب أخذ لفظ الجنس في مفهومه الأوسع وإدماج كل الأحاسيس العاطفية والسامية، لأن الحضارة تتضمن فقط عمليتي التغيير والإعلاء لهذه الغريزة، وفي نفس الصدد يذكر جونز Jonz بأن ما يقصده فرويد بالغريزة الجنسية هو ما جاء على لسان شوبنهاور Chopenhawer بإرادة القوة، قوة الحياة على رأي برغسون (Marinesco, 1923).

ومن هذا المنطلق فإن كل الأمراض العصبية والذهانية لها أصل في الانطباعات الجنسية المكبوتة في اللاشعور منذ الطفولة بقوة كف تنشط كرقيب والمتحركة بمفاهيم مكسبة للتربية والأخلاق.

ويأتي التساؤل حول كيف أن فرويد ضم كل الحالات المرضية العصابية والذهانية تحت طائلة الجنس؟، وقد ظن لووانفيلد Lowanfild بأن الأمر مجرد صدفة جعلت من فرويد يلتقي فقط بمن لديهم أسباب مرضية خاصة، لكن فريدليندر Fridlinder لا يتفق معه وهو يرى أن فيينا يخيم عليها جو جنسي خاص، بنوع من العبقرية (أو الجني) المحلي يسيطر على السكان بصفة وبائية، لذلك تجدهم يولون أهمية كبيرة للمسائل ذات صلة بالجنس، ويمكن القول أن جانيه هو من الأوائل الذين انتقدوا التحليل النفسي، بكونه لم يأتي بأي مفهوم حقيقي جديد، وما أحدث سوى الأهمية التي يوليها للجنس، ومبدأ الرمزية والتي لم يتحكم فيه فرويد بل جعل منه بفعل التعميم، خاصية لا يمكن تأكيد صحتها من عدمها (Janet, P. 2006).

وهذا غير لائق بكرامة الجنس البشري وحصر حياة الإنسان فيما هو غريزي جنسي بدائي، إذ هناك الخير والشر والتفكير والانفعال، وهو ما دفع الكثير من علماء عصره للاختلاف معه، والابتعاد عنه وصاغوا أفكارهم في نظريات أخذت كلها منحى الابتعاد عن ذلك الفكر الوضيع حول الجنس والعدوان، فاهتم الفريد أدلر أقرب أصدقائه بالجانب الاجتماعي من حياة الإنسان وان الصحة النفسية تزداد مع وجود الميل الاجتماعي أو الاهتمام الاجتماعي، كما اهتم يونج بالبعد الروحي والجانب الذي يلعبه الدين في حياة الإنسان واستقراره النفسي، وهكذا توالى المعارضون لفرويد وتوالت نظرياتهم (الشناوي، ب ت، ص393)

3.2. من حيث المنهج:

صور ستيفنز(1995) الكثير من الفكر الحديث عندما ناقش نظرية فرويد، وقال أنها لم تكن تعتمد بشكل عام على إقامة دراسات فعلية خاصة على الأطفال، فكانت معظم مواضيعه مرتبطة بالبالغين وإعطاء براهين تحليلية، ولقد كان يستند بشكل كبير على عدد من المصادر غير النفسية والفلسفة وفروع أخرى من الآداب والعلوم.(G. Marinesco, 1923) والتي قد تختلف في نظرتها واستدلالاتها العلمية عن علم النفس جذريا.

فكان فرويد وأتباعه يستخدمون الكثير من المفاهيم الجديدة والمبتكرة من تصوراتهم وخيالاتهم، واستخدامها كدلائل وحتميات علمية بطريقة مشوشة مغلوطة، رغم كثافة المعطيات والمعلومات التي استقاها فرويد من دراسة الحالات التي كان يقوم بها، ولو أنه قام بتجميع المعطيات والربط بينها وترجمتها بصفة سليمة، فإن التحليل النفسي كان سيستمر شامخا لا محالة، لكن الأمر كان عكس ذلك، كون فرويد وبعض مناصريه تشبثوا بتصور نظرية طبية-فلسفية افتراضاتها مثبتة التصديق بزعمهم، وتلك التفسيرات الذاتية أخذت كهدف لتأويل الظواهر المعقدة للاشعور العاطفي، والتي تظهر للعيان بأنها تتحدى كل محاولة تأويل، وقد ذهب أنصاره إلى حد تأويل الظواهر النفسية بألوان من الخيال منه على أن يكون بروح نقدية، لدرجة أنهم أحاطوا النظرية الفرويدية بجو النظرة التصوفية، بالإضافة إلى خدشهم لمهنة الأطباء العقلانيين بتطبيق النظرية الجنسية في علاج الذهان (Gheorghemarinesco ,2004)

من ناحية أخرى يجب التنويه أن هناك أوجه مختلفة بين تصورات فرويد للتحليل النفسي ومحللين آخرين أمثال جانيه وغيره ، فكلاهما تحدثا أو ضنا أنهما تحدثا حول نفس الظواهر (Prevost,1973)، ولكن كل منهما سجلها في مفاهيم شاملة لمراجع مختلفة تماما فيما بينها، فأما جانيه فقد وضع التحليل النفسي في

البنى العقلانية الدينية، الفلسفية والعلمية كحالات أو تنظيمات، وكان يأمل لو أنها تتطور تحت تأثير الأحداث التجريبية والمنفردة، لكن هناك معطيات إثنولوجية أو ذات صلة باللغة أدت لتلك الاختلافات في التطور وحتى في التفسير، ومن ذلك فإن التأويلات التحليلية ترتكز على التصورات والتمثلات أكثر منه عن الأفعال(Prevost,1973).

لذلك واجهت النظرية ضعف العلاقة بين مكوناتها، والشواهد الواقعية التي تقبل على أساسها النظريات فمقولات التحليل النفسي تفتقر إلى التأييد التجريبي، والشواهد المتجمعة محايدة يمكن أن تفسر بالنظرية وبغيرها (محمد عز الدين،1998، ص 214)، حتى أن بعض النقاد ينظرون إلى التحليل النفسي على أنه عملية ذاتية جدا وغير منضبطة (الدسوقي،2002، ص 134) من حيث البناء المنهجي و النظري.

ويمكن مآخذة نظرية التحليل النفسي في تأسيسها المنهجي في عدة نقاط أدرجها كما يلي:

4.2. عدم التمييز بين الملاحظة و الاستنتاج:

كثيرا ما قدم فرويد ملاحظاته على أنها استنتاجات وافتراضات، بنى عليها الكثير من القواعد التشخيصية والعلاجية، وهي لا تعدوا أن تكون سوى ملاحظات لعينات قليلة جدا بتبني تفسير واحد اعتبر تفسيرا نموذجيا.

مثال ذلك ملاحظتهم أن الطفل في 04 سنوات من العمر ينجذب نحو أمه ويتجنب الأب، وأعطى على ذلك استنتاجا اعتبر أساس الافتراض لعقدة أوديب، والغرام بالأم والرغبات الجنسية ومشاعر التنافس نحو الأب، وهو في الحقيقة شرح بديلي لا أكثر (Seors,1943) ، مع أنه يمكن إعطاء عدة تفسيرات لملاحظة ما واختبار تلك التفسيرات قدر المستطاع في مطابقتها للواقع ثم اختيار أدقها في التفسير.

5.2. الخلط بين العلاقة و السببية (الخلط بين الارتباط و العلة):

قدم فرويد كثيرا من الأحكام السببية لمختلف الظواهر، واعتبر أحدها علة لمعلوله رغم أنها لاتعدوا أن تكون ارتباطات لا غير، ويتفق علماء المنهجية في مختلف التخصصات أن السببية برهانها الوحيد هو المنهج التجريبي فأين له ذلك؟

مثال ذلك زعمه أن الأطفال في السنة الأولى من العمر يشتغلون بسلوكيات لها علاقة بالفم (كالمص والرضاعة...) وأنهم يعتمدون أيضا على الآخرين في الكثير من حاجياتهم ويحدث السلوك الفمي والاعتمادية مع بعض، فهما مرتبطان ومن غير المشروع الحكم بأن الاعتمادية والإتكالية قد أثرت فيها أو تسبب فيها فعل الفمية (محمد قاسم،2000) و قد يكون عامل ثالث هو سبب للاتكالية أو الفمية لا ما تم ملاحظة ارتباطه.

6.2. مشكلات متعلقة بالعينة:

يعتمد التحليل النفسي على عينات نموذجية صغيرة، وكل كتابات فرويد تتضمن فقط اثنتا عشرة حالة مفصلة واستنادا لذلك فإن العدد القليل للحالات لا يعتبر مناسبا للبناء والتنظير، وهكذا فإن مدى تمثيل العينات المدروسة للمجتمع الأصلي موضع تساؤل، ويبدو واضحا أن عينات فرويد كانت محدودة (Rozen,1975)

ضف إلى ذلك أن الشواهد التي ساقها فرويد لتأييد مقولاته النظرية تجد منها حالات اكلينيكية غير محددة وغير سوية في مجتمع فينا الفكتوري، فهل هذه الحالات تكفي لتعميم عقدة اوديب وتعميم فترة الكمون الجنسي وتعميم المرحلة الفمية والشرجية والقضيبية على سائر الناس في جميع المجتمعات، مع ما نعرفه من اختلافات الحضارات في التعامل مع الأمور الجنسية التي لا يحكمها الجانب البيولوجي وحده (محمد عز الدين،1998، ص ص 214-215)، كما أكد فرويد

على نظرية الإغواء الأبوي، من خلال الاعتماد على ثلاث عشرة حالة فقط أن سبب الهستيريا كان التعرض لتجربة جنسية قبل البلوغ، وبشكل أدق لإغواء مؤذ، وأخذ فرويد يبني آماله من جديد على هذا الاكتشاف المزعوم (برسيفال بيلي، 1999، ص40)

كل ذلك لأن فرويد اشتق أفكاره من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية الذين فحصهم بدقة وعمق، ثم رآها على أنها الحقيقة التي لا تقبل الجدل، وقضى حياته في عمل شاق ومرير، ولم يكن يقبل وجهة النظر التي تتعارض معه فقط إلا ليظهر أنه واسع الأفق (الدسوقي،2002، ص 134)، ولذلك أخفق في إدراك أن ما وجده في مرضاه إنما كان مرتبطا بوقت معين و مكان معين، وقد عمم فرويد من مجتمع فيينا في القرن التاسع عشر على كل البشر دون إدراك لأهمية الفروق الحضارية في النمو الإنساني (الشناوي، ب ت، ص392)، ومن الصعوبة أن نشرع في إجراء التعميم إلى حالات أخرى من خلال دراسة حالات فما بالك إذا كان التعميم في نظرية التحليل النفسي يشمل كل البشر.

ونفس الانتقاد يوجه للمحللين المعاصرين، حيث أن الحالات التي يقومون بدراستها وعلاجها لا تمثل الشخصية الإنسانية عموما، واليوم غالبا ما يكون القادمون للعلاج النفسي من ذوي المستوى الاقتصادي المرتفع (لأن التحليل النفسي مكلف ماديا) (محمد قاسم،2000)

7.2. مشكلات متعلقة بالاختبار و القياس:

يتضمن التحليل النفسي تفسيرات اعتباطية يصعب إثباتها أو البرهنة عليها (Moll,1912) لأنها لم تقم على أساليب قياس دقيقة، ولم تختبر بالأدوات العلمية الضرورية، بل تم اعتماده على حواسه من الملاحظة و الاستماع والإدراك لما يقوله المفحوص، ولا يخفى ما لهذه الأساليب من عيوب في مصداقية النتائج، فمثلا يفترض فرويد أن الأحلام هي تحقيق وإشباع لرغبات مكبوتة، ولكن من

الصعب أن نفهم كيف تمثل هذه الأحلام تحقيقا للرغبات بالطرق العلمية،وقد يقولون يمكن ذلك بالاختبارات الاسقاطية ولكن غالبا ما كان الأساس النظري لتلك التقنيات الاسقاطية من آراء التحليل النفسي، وترتبط بها لذا فقد واجهت مشكلات كبيرة تتعلق بالصدق والثبات، وغياب إمكانية التعيير والتقييم، ضف إلى صعوبة تفسير نتائجها لأنها تعتمد ذاتية الفاحص ولكل وجهة نظره في الحكم والإدراك.

8.2. مشكلات متعلقة بموثوقية التفسيرات:

هناك مشكلة أخرى تتعلق بمدى وثوقية تفسير المعطيات من دراسة الحالات بالتحليل النفسي، فقد ينظر محللون مختلفون إلى نفس المعطيات، و يتوصلون إلى تفسيرات مختلفة من الضروري الوصول إلى نفس التفسيرات (و نفس الحلم قد يفسر بطرق مختلفة من قبل محللين نفسيين آخرين (Lorand 1946, Schofer,1950)

وهكذا فإن صدق و ثبات التفسيرات في التحليل النفسي ضعيفة لأن المعطيات كيفية.

9.2. مشكلات متعلقة بالمفاهيم الإجرائية:

أكثر مفاهيم التحليل النفسي لم تعرف بشكل واضح وجيد، وغالبا ما كانت هذه التعريفات غامضة وغير محددة، وسوف لن نذهب لأبعد من المفهوم الرئيسي للاشعور الذي رآه فرويد بأنه أية حادثة عقلية نفترض وجودها ولكن لا نعرفها وهو مفهوم لا يقدم لنا وضوحا إجرائيا أو امبريقيا.

وأغلب حالات التحليل النفسي قد كتبت في شكل قصصي وحكايات، وهذه الغموضية في المفاهيم تجعل من الصعب إجراء قياس وتقويم للمفاهيم الهامة والضرورية، وقد يصعب الإجابة على أسئلة تتعلق بالكم في كثير من المفاهيم، فمثلا ما هي كمية الطاقة الجنسية الموظفة في المرحلة الفمية؟

وما هي درجة التهديد الخصائي التي يمر بها الطفل؟

وغالبا ما تكون القياسات المرتبطة بالمفاهيم الافتراضية ذاتية (كالرمزية في الأحلام واستجابات الرورشاخ و الTAT وغيره) (كلاين،1972).

10.2. من حيث الموضوعية:

كثيرا ما اقتربت التفسيرات التحليلية من الذاتية أكثر منها إلى الموضوعية، خاصة في مفاهيمها المبتكرة كمفهوم الكبت الذي وضعه فرويد وأدخله في الطب العقلي، والذي لقي رواجا كبيرا حيث تحدث العديد منهم كغسلان بأن الإصابات العقلية تجد تفسيرا لها في انشغالات وجدانية تركها الفرد سرية، فلأنه لم يبح بها وكبتها فوقع في الاضطراب، ألم تكن مهمة الطبيب العقلي هي أن يجعله يبوح بما في داخله لكي يرتاح؟

وتصورات فرويد وطلبته حول الحلم مثلا ما هي سوى تنظيمات لقوانين أولية وضعها موراي وآخرون، فهم يرون أن ميولنا هي التي تتحدث وتحركنا، دون أن يتدخل الوعي لإيقافها، رغم أنها تذكرنا أحيانا،فالإنسان يعود إلى طبيعته عندما يحلم، ولكن كلما نقصت الأفكار المكتسبة لديه، كلما زاد الميل لعدم التوافق معها.(Maurey, 1878) . لذا يجب ألا نعتقد أن في خلفية كل حلم هناك معنى جنسي، فهو يحتمل كل أنواع الرغبات من مستوى مبتذل (Politzer,1973).

11.2. من حيث الخدمة:

في الوقت الذي ذاع صيت العلاج النفسي التحليلي، وسط فراغ كبير وفقر علمي شديد في ميدان العلاج النفسي، فجذب العقول وبهر الأنظار بنظريته المزركشة التصورية، وبالافتراضات النظرية المفصلة القائمة على أسس افتراضية، وليس أبدا على أرضية علمية تجريبية ومعززة بالبرهان العلمي (الحجار، ب ت، ص15)

إلا أنه منذ عقدين من الزمن، بدأت هذه المدرسة تنكمش في عدد المنتمين إليها من المعالجين، بفعل حدود المعالجة النفسية التحليلية في الاضطرابات النفسية البدنية والسيكوسوماتية، وطول مدة العلاج، والأجور الباهظة ونسبة نجاحاته الضعيفة، بالموازاة مع العلاج النفسي السلوكي أو المعرفي (الحجار، ب ت، ص15)

ولم تسلم حتى التقنيات العلاجية التي اعتمدها المحللون النفسيون في الخدمة النفسية باعتبارها نتاج لكل ما سبق من التأسيس الذاتي، كاعتمادهم على التداعي الحر، والمقاومة والتنفيس الانفعالي غيره، وذلك من خلال أن:

- المريض في وضع الرقاد يكون في موقف الوهن، وهو أمر تخالفه المفاهيم الحديثة للعلاج النفسي من حيث وضع العميل وجها لوجه مع المعالج (الشناوي ،2001)
- الوقت الطويل الذي تستغرقه مدة العلاج، والذي قد يدوم لعدة سنوات، وهو مناف للنمو والارتقاء.
- ولا يمكن تطبيق التحليل النفسي على عدد من الاضطرابات مثل اضطرابات الكلام واضطرابات صغار السن وغيره.

3. خاتمة:

لاقت نظرية التحليل النفسي ذيوعا ورواجا في الربع الأول من القرن العشرين ،وقد بدأت في الانحسار بعد ذلك مخلفة وراءها مزيدا من الغموض في استخدام مفاهيمها الغامضة في بعض الكتابات، وخاصة الروائية منها ومازالت الانتقادات توجه إلى فرويد حتى فيما أورده متصلا بفسيولوجيا الأعصاب الذي كان التخصص الأصلي له. (الشناوي، ب ت، ص378)

رغم ذلك الانجاز والشهرة والجهد الذي عرفته النظرية الفرويدية في بناء المنظور الديناميكي للاشعور، إلا أنه قد عرف نقدا لاذعا من طرف من رأى في التحليل النفسي بناء يندثر ولا بد من إنشاء علم نفس جديد حتى وإن كان هؤلاء من أنصاره وتلامذته حال يونغ وآدلر وبذلك تغيير وجه التحليل النفسي بتصورات أخرى وموضوعية التفسير والتحليل، فهل يمكن أن تتحدى النظرية التحليلية بعد اليوم، وبعد التطور الهائل الذي أحرزته النظرية السلوكية والمعرفية في خدمة النفس البشرية تشخيصا وعلاجا ووقاية، على أسس منهجية علمية رغم ما لها من الانتقادات، ليرجع النفسانيون إلى الوراء لسبر أغوار النفس بمفاهيم الفرويدية الكلاسيكية؟

4.قائمة المراجع:

الحجار محمد حمدي، (ب ت)، المدخل إلى علم النفس المرضي، بيروت: دار النهضة العربية.

الدسوقي طارق إبراهيم عطية، (2002)، الشخصية الإنسانية بين الحقيقة وعلم النفس، مصر.

الشناوي محمد محروس، (ب ت)، نظريات الرشاد والعلاج النفسي، مصر: دار غريب.

الصنيع صالح بن إبراهيم، (1999)، دراسات في التأصيل الإسلامي لعلم النفس، الطبعة الثانية، الرياض: دار عالم الكتب.

الصنيع صالح بن إبراهيم، (2002)، دراسات في علم النفس من منظور إسلامي، الرياض: دار عالم الكتب.

محمد عز الدين توفيق، (1998)، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، مصر: دار السلام.

الوزاني إدريس عبد السلام شاهدي، (2008)، العلاج النفسي و خطورة المنطلق ، بيروت:طبعة دار ابن حزم بالتنسيق مع مركز التراث الثقافي المغربي.

برسيفال بيلي، (ب ت)، سيجموند القلق ، ترجمة محمد هلال، الأردن: دار المناهج.

جمعة سيد يوسف، (2001)، النظريات الحديثة في تفسير الأمراض النفسية مراجعة نقدية، مصر: دار غريب.

محمد السيد عبد الرحمان، (1998)، نظريات الشخصية، مصر: دار قباء.

محمد قاسم عبد الله، (2000)، الشخصية استراتيجياتها نظرياتها وتطبيقاتها الإكلينيكية و التربوية، سورية:دار المكتبي.

Marinesco, G. (1923) Critique des théories de Freud , « Exposé des théories de Freud », Revue générale des Sciences,4(6) ,15-30 .

Maury (1878) Le Sommeil et les Rêves. Paris.

Politzer,G. (1973) Les fondements de la psychologie, Paris : Editions Sociales.

Prevost, Claude M. (1973).Janet, Freud et la psychologie clinique, Paris : Petite bibliothèque payot.

Popper, Karl (1985) Conjectures et réfutations, trad. Michelle-Irène et Marc B. de Launay, Payot, Paris.

Juignet Patrick.(2015) Karl Popper et les critères de la scientificité. Philosophie, science et société https://philosciences.com/Pss/philosophie-et-science/methode-scientifique-paradigme-scientifique.

Janet, Janet(1919)Les médications psychologiques, vol.2, . Cité par Borch-Jacobsen et Shamdasani .